

## حوار مع إبراهيم درغوثي بتاريخ 12 / 01 / 2009.

1- ما هي العجائبية في رأيك ؟

العجائبية هي صياغة لنص واقعي تحوله من العادي إلى عالم يضح بالغرائب و العجيب من الأحداث و الشخصيات. نص يحول الحقائق الفيزيقية إلى ميتا- فيزيقية لا يقبلها العقل صراحة و لكن الحس الفني بالأشياء و الموجودات يتعامل معها و يستمتع بها و كأنها محض الحقيقة. و قد ظهر هذا الفن منذ بواكير الإنسانية. و لعل تمظهرها كان في آداب كل الشعوب المقروءة و الروية، من الجن و العنقاء و الغول في الثقافة العربية إلى الآلهة البدائية في ثقافات الهنود الحمر و عبادة المظاهر الطبيعية في ثقافات الأفارقة و سكان الجزر البعيدة في المحيط الهادي و آلهة الإغريق و الرومان في الديانات الوثنية.

و كانت الثقافة العربية سباقة في استثمار العجائبية في منذ ما يسمى بالعصر الجاهلي حتى الآن. و لعل خير مثال على ذلك ما يسمى في التراث بكرامات الأولياء و خاصة حكايات ألف ليلة و ليلة التي فتنت كل من قرأها و أسرت الغرب قبل الشرق.

2- ما هي الأسباب التي جعلتك تستخدم العجائبية هل هي نقدية تاريخية، جمالية،

فنية، سياسية، نفسية ؟:

في عالم اليوم، هذا العالم الذي اختلطت فيه الأشياء و تداخلت حد الجنون ما عاد بمستطاع الواقع وحده تفسير الأحداث و التعبير عنها. لذلك سعى العقل – كما كان الحال في الأزمان الغابرة – إلى تفسير الحياة و ما يقع فيها، بما وراء العقل. و كما فسر الإنسان البدائي الظواهر الطبيعية التي لم يفهمها بالسحر و بالتصورات الغيبية يحاول إنسان اليوم و الولوج إلى كنه الأشياء بالهروب من الواقع الحاف و ما له من صلات بحقيقة الاعتقاد بصحة الأشياء المكرسة.

العجائبية في الكتابة الإبداعية هي فن القول بامتياز لتفسير ما لا يفسر بالعقل. فهي حدس الإنسان الحديث أمام جيروت الواقع المؤلم الذي صار يعايشه على مدى ساعات اليوم الواحد في عالم صار يتغير بالدقائق لا بالأيام و الشهور. عالم ملكته اليوم آلة جهنمية تحركه على هواها في رمشة عين كما كان الساحر يفعل في الأزمان الغابرة.

هل العجائبية هي تقنية أم جنس أدبي؟:

العجائبية هي تعبير فني عن الحياة حالها حال الجناس الأدبية الأخرى التي عرفها الإنسان منذ بواكير الحضارة.

ذاك الإنسان الذي صور الحيوانات على جدران الكهوف و أسطح الجبال منذ آلاف السنين كان يعبر بطريقته الخاصة عن موقف سحري من الموجودات. أراد إنسان " الهوقار " مثلا أن تيسر له هذه الرسومات اصطياد حيوانات الجبال فغرر في الصور سهامها في قلوبها وهب " أنديكو " في الأساطير البابلية إلى أعماق الأرض للبحث عن عشبة الخلود. و أرخ اليوناني القديم للآلهة فوق جلب الأولمب و غير ذلك كثير مما أصبح متوفرا لعلماء الانتروبولوجيا و الإناسة لدى شعوب الأرض قاطبة دون التقيد بما صار مفروضا لدى شعوب الشرق الوسط التي أسست للديانات السماوية المعروفة من خلال أساطير الشعوب البائدة التي عاشت في فينيقيا و مصر الفرعونية و بلاد ما بين النهرين، ففي التوراة و القرآن حوادث عجيبة خارقة يصدقها المؤمن بقلبه لأنها وصلته عن طريق كتاب سماوي.

4- المسخ هو ظاهرة عجائبية محضة ما هو السبب الذي جعلك تستخدمه. هل لإثارة الرعب و الخوف أم لمعاقبة هذه الشخصيات؟.

ظهرت هذه التقنية مع ظهور الكتابة عند الإنسان، و لعل أبرز تمظهراتها في الأدب العربي في مدونة " ألف ليلة و ليلة "، فحين تصور الكائن البشري من صفته المعروفة إلى صفة أخرى تكون تارة محمودة كأن نحوله إلى ملاك أو طائر أو أسد فإننا نسمو به و نرفعه إلى الكمال حتى نمكنه من انجاز أفعال خيرة تفيد الإنسان و المحيط الذي يعيش فيه و يتعامل معه.

أما إذا حولناه إلى وحش في صورة شيطان أو غول أو جني شرير مثلا فإننا نريد تصويره من خلال ذلك المسخ إلى شرير بصفات تهبط به إلى الحيوانية التي عاشها الإنسان البدائي عندما كان منقوصا من الروادع الأخلاقية و الاجتماعية التي تكيف حياته على هوى المجتمع الذي يعيش فيه و لا حسب هواه و غرائزه.

5- هل يمكن تقسيم المسخ إلى مسخ مادي فزيولوجي و مسخ معنوي في شخصية بئينة و عزيز السلطاني... إلخ؟.

هناك ارتباط بين المعنوي و المادي الفيزيولوجي عند نحت الشخصيات في العمل الروائي كما الحياة لأن الشخصية كل واحد لا يمكن تجزئته ما جانب و لأننا نشاكل الواقع حين نكتب و لو على شكل فانطاستيكي غريب.

بثينة شخصية ورقية من صنع مبدع رواية " مجرد لعبة حظ " و لكنها تضرب بجذورها في الواقع العربي الإسلامي، و تحضر إلى ذهن المتلقي بسرعة حين تذكر على صفحات الكتاب.

أما شخصية " عزيز السلطاني " كواحد من شخصيات روايتي " وراء السراب... قليلا " فهي خرجت لتوها من فرن سارد النص.

6- هل شخصية بثينة جنية و ساحرة أم لا ؟

بثينة كواحدة من شخصيات روايتي " مجرد لعبة حظ " لها حضور فعلي في تاريخ الأدب العربي إذ هي ترتبط في الرواية كما في التاريخ بالشاعر جميل بن معمر العذري الذي عشقها و كتب فيها أشعارا عذبة ما زالت تغري بالقراءة حتى اليوم.

و قد استحضرتها من ذلك الزمن صحبة عاشقها جميل لتأثيث حب عصري تعيشه الشخصيان، في صورة تلميذة في معهد ثانوي بالنسبة لها و في صورة أستاذ للأدب العربي بالنسبة لجميل. و لكن هذه الصورة للعاشقين لا تثبت على حال فهي متغيرة على مدى الأزمان التي عاشتها الشخصيتان، قبل العصر السابع الهجري أي في عهد الفينيقيين حيث مرا بتجربة حب أخرى في صورة أخرى من صور التقمص حتى الزمن الحديث كما ذكرت سابقا.

هذا التقمص لشخصيات عدة عبر التاريخ يخرج بثينة من طبيعتها الواقعية ككائن يعيش الواقع كما هو إلى كائن أسطوري يبعد على الواقع كلما اقترب منه.

فمن أميرة فينيقية تسافر في البحر لتزف إلى أمير قرطاجي تتحول في زمن آخر إلى بثينة التي تغني بها جميل بن معمر ثم إلى تلميذة في معهد الحمامات التونسية في العصر الحاضر الذي تدور فيه أحداث روايتي " مجرد لعبة حظ ".

7- ما هي دلالة الرقم ثلاثة في رواياتك خاصة " مجرد لعبة حظ " و بثينة لها

ثلاثة عيون، و تشكل مع فائز و رجل الملهى ثلاثية ؟ و قبلها مع فائز و جميل العذري ثلاثية ؟.

هناك أرقام يتداولها المخيال الشعبي مثل خمسة و سبعة توارثتها الشعوب على مدى القرون و صار لها مدلولاً سحريا في الذائفة الشعبية.

و الغريب في الأمر أن شعوبا لا رابط دينيا أو حضاريا كان يجمعها مثل شعوب الأزتيك و الانكا و المايا في أمريكا و شعوب إفريقيا جنوب الصحراء أو شعوب جزر الباسيفيك النائية تداولت هذه الأرقام في مخيالها الجمعي كأرقام ذات مفعول سحري. زيادة عن الشعوب التي سكنت بلدان البحر المتوسط و الشرق الأوسط و بلاد ما بين النهرين، هذه الشعوب التي وصلتنا منها هذه الأرقام بما تعنيه من فعل غيبي ما ورائي. ظل الكثير منا حتى يوم الناس هذا يعتقد فيه.

أما فيما يخص الرقم ثلاثة فأقل تداولاً من الاثنين السابقين، و إن كان يماثلها في المدلول و المعنى، فكثيراً ما جاء في كتب الأساطير القديمة ذكر لكائنات لها ثلاث عيون و هو دلالة على توقد البصر، و على الحكمة و توقد البصيرة. و لعل وسم بثينة الرواية بمثل هذه الصفات دليل على بعض ما ذكرت.

8- هل يمكن الاستغناء عن الشخصيات العجائبية " الجن، الساحر، المسوخات، الأولية... إلخ". أو استبدالها بشخصيات أخرى في مجمل رواياتك؟

أبدا هذه الشخصيات في الرواية بمثابة العمود الفقري بالنسبة لجسم الإنسان، لا تقوم لها قائمة إلا بها، لأن أحداث غير عادية يستحيل على شخصيات عادية انجازها. فيصبح من المحتم و أنا ابني نصي أن استجلب له من وراء الواقع ما يوافق إنجاز العمل السردي و هذا لن يتم إلا بمثل تلك الشخصيات العجبية الخارجة من معطف الأسطورة.

9- ما هي الأهداف التي تتوخاها من استخدام العجائبية هل تهدف إلى السخرية؟

إن حضور العجائبية في رواياتي غير مقم إقحاما لا من حيث الأحداث و لا من حيث الشخصيات و إنما هو يتواتر لأن النص لا يمكن له أن يكون إلا بهذه الطريقة. فلن يكون في مقدورنا مثلا أن نطلب من " بلزاك " أن يحول رواياته الواقعية إلى روايات عجائبية، و العكس بالعكس فلن يكون مستساغا قراءة روايات لجبريال قارسيا ماركيز مثلا لا تحضر فيها العجائبية مثلا لا تحضر فيها العجائبية التي هي أس من أساسات هذه الكتابة.

فالكاتب الحقيقي و هو يكتب نصه لا يختار على هواه و بإرادته مجرى الذي قد يهرب منه في أحيان كثيرة و ما أخطت مثلا و أنا أنجز نصي كثيرا ما أخرج عنه عند الانجاز. إن هذه الصياغة في الكتابة نفتح لي أفقا كبيرة في العمل الإبداعي و تمكني من الخروج على المؤلف في أحيان كثيرة و تتيح لي ما لا تقدر عليه الواقعية بكل تفرعاتها.

10- ما رأيك في هذه الصورة بئينة = ساحرة ؟

بئينة = جنية. بئينة = إلهة. بئينة = حية (شيطانة). بئينة = حواء. بئينة = لأرض  
بئينة = تانيت. بئينة = عشروت. بئينة = آلات. بئينة = العزى. بئينة = مناة.

بئينة تقمصت كل هذه الشخصيات الأسطورة من خلال طبيعتها في النص. فكما قلت سابقا هي شخصية ورقية ولدت من رحم الواقع الذي يحيل عليها مباشرة من خلال التراث الأدبي العربي.

و قصتها معروفة فهي بطلة واحدة من قصص الحب العربية المشهورة شأنها شأن ليلي قيس و عزة كثير و غيرها من تلك القصص التي سارت بها الركبان في التراث العربي الإسلامي الذي وصلتنا حكاياته حتى زمننا هذا.

و لكني جعلت منها في نصين في كل مرة شخصية أخرى من الشخصيات التي ذكرتها، فهي تارة ساحرة تلعب بالورق و تقرأ الحظ من خلال الكف.

و طورا آلهة من آلهات الفينيقيين في صورة تانيت أو عشتارت و هي تهاجر من فينيقيا إلى القرية الحديثة التي أوجدها الفينيقيون في بلاد البربر: " قرط حشت" أو قرطاج لتتزوج من أمير من هناك، و لكنها تغوي بحارا و تهرب معه لتعاود الظهور في صورة أخرى و هي تتقمص شخصية عائشة حديثة في قصة حب عصرية.

إن بئينة في هذه الرواية هي صورة عن المرأة منذ بواكير الحضارة، امرأة تفعل في الحياة من خلال الحب.

و ما اللات و مناة سوى صور لربات أخريات عرفها الشرق في شماله و جنوبه، من بلاد ما بين النهرين إلى فينيقيا و اليمن و مصر، آلهة للحب و الخصب و الجمال. و ما بئينة و غيرها من النساء التي تغنى بجمالها شقراء تلك الأزمان إلى صور للآلهة ما عاد بمقدورهم أن يذكروها بصفات تلك بعدما وحد الدين الإسلامي العبادة في رب واحد هو " الله " الذي لا إله إلا هو.

و لكن صورة المرأة المعبودة، الواهبة للحياة و الحب ظلت ساكنة في وجدان العربي فخلدها في صورتها تلك دون أن يجراً على تقديسها خوفاً من خروجه على نواميس العبادة.

#### 11- هل هي صورة عن كل هذه الشخصيات ؟

نعم، و زيادة، فبثينة الرواية لها كل خصائص هذه النسوة الخارجة من أساطير الحكاية القديمة بصفاتنا الدينية كما مع: تانيت و عشتارت و اللات و مناة هذه الربيات التي عبدها العرب العاربة و المستعربة في بلاد العرب. أو بصفاتنا الخرافية كما في حال تقمصها لصفات الجن و الشياطين التي عرفناها في الخرافات الشعبية أو في قصص ألف ليلة و ليلة.

ثم هي هذه المرأة الحديثة التي تلبس الدجين و تسبح في البحر بالمايوه و تسوق السيارة، هي إذن كل تلك النساء في امرأة واحدة أردتها أن تكون ممثلة لهن في هذا الزمن. بلسانهن تتكلم و عنهن تعبر، هي حواء القرن العشرين و ما بعده ففيها كل الصفات المتوارثة عن تلك النسوة و لكنها تختلف عنهن بانها تمردت عن قيم التخلف التي كانت تكبل المرأة العربية فتحررت من قيود الماضي و انفتحت عن آفاق الحرية التي نشر بها الرواد الذين دعوا إلى المساواة بين المسلمين.

12- هل شخصية الشيخ الطرابلسي في رواية وراء السراب قليلاً، و التي نصفها إسلامي و نصفها مسيحي خاصة عندما هدى لويس الفرنسي إلى الإسلام و أنا أشك في هذه الهداية القائمة على السحر و الخوارق أكثر منها على الإقناع.

و من أهم المظاهر المسيحية حسب رأي: " فأنا لا طاقة لي على حمل أوزار أخرى من بني جلدي و على رؤية لون الدم مسكوبا على رمال الصحراء " كذلك يمكن أنه صورة عن عيسى بن مريم الذي سوف يتحمل أوزار البشرية كلها. و قولك " مدوا أيديهم و قرؤوا فاتحة الكتاب " و كذلك قوله: سلام على يوم ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حيا هذه الكلمات تدل على عيسى ابن مريم في القرآن الكريم و كذلك نزول المائدة و هي دلالة على عيسى التي دعا بني إسرائيل عيسى فأنولها الله عليه، و هي تدل على الشيخ الطرابلسي و ما هي إلا صورة مركبة للديانة الإسلامية و ذلك بفتح الصدر

لأطفال القرية و هي نفسها حادثة شق الصدر للرسول محمد (ص) و كذلك نزول المائدة و الآية القرآنية دلالة على الديانة المسيحية.

شخصية الشيخ الطرابلسي مستقاة من شخصية درويش، صاحب كرامات، و ما أكثرهم في التراث الشعبي العربي الإسلامي، هو رجل يتوفر على طاقات كبرى في اقتراح حلول لما يتعرض له المواطن العربي في زمن كان يؤمن بالخرافات و في الاعتقاد في أن مثل هؤلاء قادرون على ما لا يقدر عليه غيرهم.

و قد شجع المستعمر الفرنسي الزوايا التكايا على امتداد البلاد التي استعمرها في شمال إفريقيا و في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء. و لعل خير على ذلك انتشار مريدي الزاوية التجانية في الجزائر و في البلدان الإفريقية المجاورة لها.

لقد حاولت من خلال شخصية الشيخ الطرابلسي الواردة في روايتي " وراء السراب... قليلا " ملامسة هذا الموضوع الحارق و الذي مازلنا حتى الآن نجانب الحديث فيه من ناحيتين:

**الأولى:** خوفا من الاتهام بالكفر من الإسلامويين الراديكاليين الذي لا يعتقدون في الزوايا و مريديها انطلاقا من الفكر الوهابي الذي يكفر هذه الأفعال.

**الثانية:** خوفا من الكفر مرة أخرى، و لكن هذه المرة من مريدي هذه الزوايا لمن يؤمن صحة اعتقادهم.

لكل ذلك عرضت هذه الشخصية بكل ما لها وما عليها جاعلا منها المثل الأعلى في الإيمان لمن يعتقد فيها، ولكن في نفس الوقت معرضا بها خاصة فيما يمكن أن تأتيه من خوارق لا يؤمن بها العقل السليم.